

تفتيت التاريخ: مقاومة مقدّمي الرحمانية بجيجل للاستعمار

الفرنسي 28 ماي – 21 أوت 1871م

Fragmenting history: The resistance of Jijelian Rahmani moqadams
against the French colonization

May 28th – August 21th, 1871

سفيان عبد اللطيف،

جامعة 8 ماي 1945 قالمة

abdelatif.soufyane@univ-guelma.dz

تاريخ القبول: 2021/12/23

تاريخ المراجعة: 2021/10/20

تاريخ الإرسال: 2021/09/23

الملخص:

لقد أدى الإيغال لآمادٍ متطاولة في التركيز على التاريخ الشمولي العام لدى صناعة معالم الهويات الجامعة في العالم إلى نشوء إحساس المجتمعات المحلية غير المركزية بالتهميش إزاء مجتمعات المراكز الكبيرة، وهو ما حذى بـ "التاريخ الجديد" إلى التوجه نحو م يسمّيه ف. دوس تفتيت التاريخ وإيلاء العناية بتحديدات أكثر محلية. وفي هذا السياق يأتي مقالنا هذا لاقطاع إرب من أحداث الانتفاضة الجزائرية الشاملة لعام 1871م بتحديد مشيخي-جغرافيّ يتمثل في المجال الجيجلي، والهدف هو إظهار الإسهام الحيوي لهذا المجال في زخم الانتفاضة، وردّ نوع من الاعتبار للمحليّ. لقد كانت الزاوية الرحمانية السائدة بالجزائر هي المحرك الرئيس لهذه الانتفاضة، ومقدّموها بمنطقة جيجل قدّموا ما يجعلهم يستحقون الذكر كغيرهم من قيادات المقاومات الشعبية، ولو كانت أعمالهم محدودة التوسع جغرافيا، لأن ذلك لا ينقص من شأن قيمتها وتضحيات شهدائها.

- الكلمات المفتاحية: مقاومة شعبية - الزاوية الرحمانية - مجال جيجل - الاستعمار الفرنسي

Abstract :

For long periods, the focus on general history for the fabrication of collective identity traits in the world leads to a feeling of marginalization among local communities in relation to the societies of the major centres. This encourages "new history" to turn towards what F. DOSS calls "fragmented history" and give more attention to the local. In this context, our article takes a part of the events of the Algerian general uprising in 1871, by defining a Chaikhatico-geographical field represented by the region of Jijel. The aim is to show the vital contribution of this region to the momentum of the uprising, and to give some kind of consideration to the local. The dominant Zaouia Rahmania in Algeria was the main motivator of this uprising. Its Moqadams in the region of Jijel did what makes them worthy of mention as the other leaders of the popular resistance, even if their effort was limited in the geographical expansion, because that does not underestimate its value and the sacrifices of its martyrs.

— **Keywords:** popular resistance - Zaouia Rahmania - Jijel region - French colonialism

Résumé :

Pendant de longues périodes, la focalisation sur l'histoire générale pour la fabrication des traits identitaires collectifs dans le monde conduit à l'émergence d'un sentiment de marginalisation chez les communautés locales par rapport aux sociétés des grands centres. Ce qui incite « l'histoire nouvelle » à se tourner vers ce que F. DOSS appelle « l'histoire en miettes » et donner plus d'attention au local. Dans ce contexte, notre article prend un parti des événements de l'insurrection générale algérienne en 1871, en définissant un champ Chaikhatico-géographique représenté par la région de Jijel. L'objectif est de montrer la contribution vitale de cette région l'élan du soulèvement, et de rendre une sorte de considération au local. La Zaouia Rahmania dominante en Algérie était le principal motivateur de ce soulèvement. Ses Moqadams dans la région de Jijel ont fait ce qui les rend dignes d'être mentionnés comme les autres leaders de la résistance populaire, même si leur effort était limité dans l'expansion géographique, car cela ne sous-estime pas sa valeur et les sacrifices de ses martyrs.

Mots clés : résistance populaire - Zaouia Rahmania — région de Jijel - colonialisme français

المقدمة:

لقد أفضى الانفتاح الذي اقترحه التاريخ الجديد بالمفهوم الحولياتي عند فرونسوا دوس إلى نتائج مبهرة أنتجت حرية التعامل مع التاريخ بوصفه إربًا مونوغرافية صغيرة لا ظواهر بروديلية متسقة، وفي الإطار تندرجُ دراستنا عن المقاومة الدينية-العسكرية للاحتلال الفرنسي للجزائر، من خلال اقتطاع مشيخي-جغرافي بالمجال الجيجلي،

لقد كانت مشيخات قبائل منطقة جيجل سبّاقة إلى مقاومة المحتلّ الفرنسيّ بقرنين من الزمن تقريبًا، قبل حتى أن ينجح في الاستيلاء على الجزائر العاصمة سنة 1830 م، وذلك أنّ مشروعه الأوّل للدخول إلى شمال أفريقيا عبر بوابة جيجل كان سنة 1664 م بعدما قام الدوق دوفوفور (Duc de beaufort) في إطار عدوان صليبي ثلاثي فرنسي-إنجليزي-هولندي باحتلال مدينة جيجل من 23 جويلية إلى 31 أكتوبر 1664 م، ولقي مقاومة عنيفة من السّكان بقيادة الأسرة المُقرانيّة، ثم دحرته حملة الجيش العثماني بقيادة الأغا شعبان في معركة سوّكر 31 أكتوبر وأفشلت مخططة¹، وهو الأمر الذي أنتج عداوة تقليديّة بين الجواجلة والفرنسيين منذ ذلك الزمن. ومن ناحيةٍ أخرى، كان لقيام إمارة عبد الله ابن الأحرش الدرقاوي من 1801 م إلى 1807 م بمنطقة وادي زهور وصراعه العسكري مع بايات قسنطينة، ثم نجاحه في قتل الباي عصمان بن محمد قارة (المدعو الأعور) في معركة المهراس قرب قرية العرابنة، جعل لمنطقة جيجل هيبّة عظيمة ومكانة لا يُستهان بها لكلّ من يفكر في اقتحام المنطقة لممارسة سلطة غير ذات مشروعيّة على ساكنتها، وقد كان الفرنسيّون مطّلعين على هذه المعطيات جيّدًا، لذلك أجّلوا احتلال منطقة المربّع الجيجلي الممتد من القلّ إلى سوق الاثنين بسنواتٍ طويلة بالرغم من سقوط جميع المُدن المحيطة به، بل وجعلوا له مشروعًا خاصًا تمثّل في حملات ضخمة أطلق عليها تسمية حملات التهدة (colonies de pacification) قام بها أكبر الجنرالات في الجيش الفرنسي ولمراتٍ متكررة، ولكنهم لم ينجحوا أبدًا في كسر مقاومة منطقة جيجل حتى غادروها سنة 1962 م.

¹- Voir : BACHELOT (Bernard): Louis XIV en Algérie: Gigeri-1664, L'Harmattan, 2003.

1- مقاومات وثورات الجواجلة السابقة لثورة مقدمي الرحماننة (13 ماي 1836م -

27 فيفري 1871م):

لقد أسهمت المشيخات المحليّة لمنطقة جيجل في الدفاع عن مدينة قسنطينة مركز سلطة بايلك الشرق عند وصول الاستعمار الفرنسي إليها في معركتها الأولى التي دامت ثلاثة أيام 22-23-24 نوفمبر 1836م، وذلك من خلال مشاركة مشيخة أولاد عيدون بالوادي الكبير بقيادة بورنان بن عز الدين، ومشيخة بني يدر بالشقفة بقيادة محمد بن مراد، حيث دعاهما الباي حاج أحمد إلى الجهاد فلبيا دعوته²، وانتصرت قسنطينة على المحتلين في هذه المعركة بفضل اجتماع أهل البايك من كل النواحي ومنها منطقة جيجل.

وبعد سقوط قسنطينة سنة 1837م وميلة وسكيكدة في 1838م، هاجم الفرنسيون مدينة جيجل بقيادة الجنرال دوسال (De Salle) واستولوا عليها ليلة 12 إلى 13 ماي 1839م³، وخرج منها سكانها إلى هضبة بني قايد، وانطلقت مقاومتهم بقيادة سي الطاهر بن أمقران وسي علي بن عبد الرحمن القسّي يوم 13 ماي، وانضم إليهم قبائل المنطقة من شرقها بالميلية إلى غربها بزيامة المنصورية، فوقعت معارك ضخمة منها حصار قلعة جيجل من 13 ماي إلى 09 جوان 1839م الذي شارك فيه أزيد من 4000 مجاهد، يشهد بذلك النقيب دوسانت أرنو في مذكراته يقول: "في اللحظة التي أكتب فيها (التاسعة صباحا)، أرى أرتالا بيضاء ضخمة تهوي من الجبال وتعدنا بقتال عنيف..⁴"، وبحسب الإحصائيات الفرنسية فقد فيه المحتلون أكثر من 200 جندي بين قتل وجريح، واستشهد من القبائل الجيجلية الشرقية والغربية طوال شهر تقريبًا نحو 1500 شهيد بسبب 12 مدفعًا نصبت عند حصن

² يُنظر: باي (حاج أحمد)، مذكرات أحمد باي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص69، وينظر شغيب (محمد المهدي): أم الحواضر في الماضي والحاضر، تحقيق: سفيان عبد اللطيف، دار نوميديا قسنطينة، 2015، ج2، ص355.

³ مسيرو (فرانسوا): سانت أرنو أو الشرف الضائع، تر. مسعود حاج مسعود، مراجعة أحمد بكلي، دار القصبة - الجزائر،

2007، ص177-178.

⁴ م ن، ص177.

سيدي اعمر (Duquesne)⁵. معركة صخرة الدزيرة في 04 أفريل 1841م، الذي شارك فيه 8000 مجاهد ضد القائد بيكولو (Picouleau) حوَصر فيها المجاهدون بين صخرة الدزيرة والبحر⁶، وتواصل القتال الكثيف حتى الرابعة صباحًا، فقتل من الفرنسيين نحو 20 جنديًا، وسقط من الثوار نحو 200 شهيدًا بتقدير المؤرخين الفرنسيين. معركة الشاطئ 17-19 سبتمبر 1841م بقيادة سيدي السعيد بن غزالة شيخ العوانة، تكون جيشه من نحو 6000 رجل، استعان فيه المحتل بمدافع سفينة شيمار (Chimère) وقذف الثوار من جهة البحر، فأرغم المجاهدون على الانسحاب تحت وقع المدافع، معركة سور جيجل في بداية مارس 1843م بقيادة محمد ولد رسول الله (المدعو ابن الأحرش) ولخضر مولى الشقفة وبورنان بن عز الدين، شارك فيها 8000 مجاهد وألجؤوا الفرنسيين إلى قصفهم بالمدافع واستعانوا بمدفعية سفينة ستيكس (Styx)، فاستشهد منهم 200 شهيدًا كما أوردته تقاريرهم، ولم تستطع المقاومة استرجاع مدينة جيجل، إلا أنهم حاصروا العدو داخل أسوارها فلم يستطع تجاوزها إلا فيما بعد.⁷

ومن الناحية الشرقية قام الجنرال بيدو (Bedeau) قائد عمالة قسنطينة، وكان قبل ذلك القبطان الذي قاد احتلال قسنطينة سنة 1837م⁸، بمحاولة غزو جيجل عن طريق مهاجمة مدينة الميلية⁹ ومداومة مقرّ مشيختها بسوق أولاد عيدون¹⁰، فانطلقت مقاومة شديدة لحملته¹¹ في 14 جوان 1847م ووقعت معركة سيدي معروف بمشاركة مشيخة بني خطاب وبني قايد العقبيّة، ثم معركة سوق الميلية بقيادة بورنان بن عز الدين

⁵- المعلومة عند فيرو دون إحصائيات، يُنظر: فيرو (شارل): تاريخ جيجلي، تر. عبد الحميد سرحان، دار الخلدونية، الجزائر، 2010، ص 181.

⁶- م ن، ص 193.

⁷- ينظر: مسيرو (فرانسوا): سانت أرنو أو الشرف الضائع، المصدر السابق، ص 177.

⁸- العنتري (محمد الصالح): فريدة منبسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانهم، مراجعة يحي بوعزيز، الجزائر، ص 113.

⁹- عميراوي (أحميدة): محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، ط2، 2004، ص 33.

¹⁰- بوعزيز (يحي): موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، ج2، ص 50.

¹¹- قداش (محفوظ): جزائر الجزائريين، تر. محمد المعراجي، ANEP، الجزائر، 2008، ص 133.

أيام 20-21-22 جوان 1847م، فشل فيها بيدو في الاستيلاء على المدينة فانسحب إلى القل في 26 جوان¹². ثم وقعت معركة أخرى في سيدي مروان قرب ميلة في يوم 30 أوت 1848م أزمع بورنان بن عز الدين وجيش من قبائل الوادي الكبير وزواغة الهجوم على حامية الفرنسيين، وانضم إليه شيخ بني حبيبي بلقاسم بن فيالة ومعه 2000 مجاهد، ثم عاودوا الهجوم يوم 02 سبتمبر لولا وصول الجنرال إيربيون (Herbillon) من قسنطينة على رأس جيش كبير حسم المعركة للفرنسيين.

وفي عام 1849م انتقل محمد ولد رسول الله وانضم إلى أحمد بن عبد الله بن يمينة الدرويش بسوق الميلية¹³، وأعلنوا الجهاد في سوق أولاد عيدون بالميلية فانضم إليهما بورنان بن عز الدين وأحمد الشريف مولى الشقفة¹⁴ في جيش قوامه 3000 مجاهد، ووقعت بينهم وبين الفرنسيين عدة معارك بينها معركة بني موية في 28 أفريل 1849م التي انتصر فيها المجاهدون على فرق القايد السعودي، معركة الحروش¹⁵ في يوم 29 أفريل بقيادة أحمد بن يمينة والتي قاومه فيها القبطان دوبويسون (Daubuisson) بالمدفعية الثقيلة مما تسبب في خسائر جسيمة وانسحاب المجاهدين إلى الجبل، ثم معركة جبل سيدي ادريس في 05 جوان 1949م التي استشهد فيها ابن يمينة على يد المجند القومي علي بن الفردي في مواجهة فردية ملحمة، وانسحب المجاهدون إلى قراهم¹⁶.

وفي سنة 1851م قام دوسانت آرنو (De saint Arnaud) بحملته المشهورة على منطقة جيجل، ودخلها من جهة الوادي الكبير على بني ميمون وأولاد عسكر مروا ببني عيشة، مما جعل أولاد عيدون وقبايل الوادي الكبير يعلنون عليه الجهاد في ثورة ضخمة

¹² - ROZET et CARETTE -HOEFER F: Algérie. états tripolitains. didot frères. Paris, 1850, p343.

¹³ - MERCIER (Ernest): Histoire de Constantine, J. MARLE et F. BIRON, 1903, p 529.

¹⁴ - KITOUNI (Hosni): la Kabylie orientale dans l'histoire -pays des Kutama et guerre coloniale, Edition Casbah, Alger, 2013, p131.

¹⁵ - MERCIER (Ernest): Histoire de Constantine, Op.cit. p 525.

¹⁶ - Ibid. p 530.

استطالت لمدة 20 سنة إلى غاية 1871م وانضمت إليهم فيها قبائل جيجل كلها وقبائل القل، مما استدعى تجنيد أكبر جنرالات فرنسا: ماك ماهون (Mac mahon) 1852م قاستو (Gastu) في 1858م¹⁷، ديفو (desvaux) في 1860م، بوجي (Pouget) في 1871م، وعدد كبير جدًا من المعارك، أشهرها معركة الركابة في 13 ماي 1851م¹⁸، معركة سوكر 20 ماي 1851م¹⁹، معركة سيدي معروف من 17 إلى 21 ماي 1852م²⁰، معركة تاسقيف 13 ماي 1860م، حصار برج الميلية من 14 إلى 27 فيفري 1871م²¹.

هذه المقاومات الضخمة المتواصلة بالرغم من ردود الفعل الاستعمارية العنيفة التي تم فيها حرق القرى وقتل السكان ونفهم ومصادرة أراضيهم وفرض الضرائب المجحفة عليهم وأخذ الرهائن منهم، كل ذلك لم يثن قبائل المنطقة عن القيام بثورة جديدة لا تقل ضخامة وضراوة، وتمثلت في انضمام مقدّمي الزاوية الرحمانية إلى عزيز بن الحداد بعد استشهاد محمد المقراني، وقيامهم بثورة عارمة بسائر نواحي منطقة جيجل من شهر جوان إلى شهر أوت، وهي التي نصطلح عليها بـ"ثورة مقدّمي الطريقة الرحمانية".

2- السّياقات العامّة المُمهدة لعودة فعل الانتفاض:

لقد تميّزت منطقة جيجل في علاقتها مع الطريقة الرحمانية التي يقع مقرّها بجاية في قرية صدوق بالارتباط الوثيق منذ أن أنشأت هذه الطريقة فروعًا لها بالمنطقة يقودها "مقدّمون"، ثم أصبحت هذه الطريقة الصوفية الأكثر انتشارًا بالمجال الجيجلي بعدما بسطت تحكّمها على أكثر الزوايا التعليمية المنتشرة واستندت إليها المشيخات المحليّة في

¹⁷ - Le commandant Du CHEYRON: Bordj-Bou-Arredj pendant l'insurrection de 1871 en Algérie - Journal d'un officier, Paris 1873, p168.

¹⁸ - فيرو (شارل): تاريخ جيجلي، م س، ص 202.

¹⁹ - م ن، ص 203.

²⁰ - عمراوي (أحمدية): محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، م س، ص 33.

²¹ - BATTACHE (Ali): Aperçu historique sur la kabylie - La vie de cheikh El Haddad et l'insurrection de 1871,

2^{ème} edition, Edition al-amel, 2010, p138.

ممارسة السّلطة، وهو ما جعلها قوّة قياديّة في ميدان المقاومة تحظى بثقة السكان وتتبع نداءاتهم للجهاد، وقد شهدت منطقة جيجل مقاومات وثورات عدّة دعا إلى الجهاد فيها مقدمو الرحمانية مثل مقاومة مدينة جيجل التي قادها المقدم الطاهر بن أمقران، وثورة أولاد عيدون وقبائل الوادي الكبير التي دعا إليها المقدم سي راجح بن عتيق وغيرهما.. ثم في شهر مارس 1871م، سمع النَّاس بقيام ثورة الباشا محمد المقراني في مجانة، والتحاق شيخ الطريقة الرحمانية محمد أمزيان الحداد به وإعلانه الجهاد، وهو ما يقتضي في عقيدة هذه الطريقة طاعة الشيخ وإجابته إلى الجهاد والانضمام إلى الثورة.

يضافُ إلى ذلك روح الانتقام التي انتشرت عند الناس عقب الانتقام الذي مارسه الجنرال بوجي (Pouget) على القبائل التي شاركت في ثورة أولاد عيدون المُنتهية في 27 فيفري 1871م أي من السنة نفسها، مما جعل القبائل الأخرى تخشى الوقوع في المصير نفسه وتتوق إلى التخلص من المحتلّ الفرنسي، خصوصاً بعدما اشتدَّ ساعد المعمرين على قبائل المنطقة، وبالع الأوروبيون في الاستيلاء على أراضيهم وأموالهم بحجة ردعهم عن الثورة مرّة أخرى...

ومن أسباب اشتعال الغضب الشعبي أيضاً ما عانتَه المنطقة من جوائح سنوات 1866م و1867م و1868م، حيث انتشرت المجاعة والأمراض الفتاكة كالكوليرا والجذري والجداد، مما أفقد الناس موارد عيشهم وأتعبهم في دفع المغارم الباهظة المفروضة عليهم من السلطة الاستعماريّة، إلى الدرجة التي جعلت شيوخ الأعراش يستنجدون ليسدّوا حاجيات الناس ومنهم محمد المقراني الذي اقترض من المعمرين القمح لإطعام عرشه، ومحمد بن عز الدين الذي طلب من الامبراطور الفرنسي العون والمساعدة، إلا أن الفرنسيين استمروا في نهب السكان واستنزاف أقواتهم. وفي المرحلة نفسها، صدر مرسوم كريميو في 24 أكتوبر

1870م الاستفزازي الذي أقرّ لليهود التجنس بالجنسية الفرنسية، والحصول على الحقوق المدنية كاملة²²، وهو ما زاد في غضب السكان ونقمتهم على المحتلّ.

وتجدر الإشارة إلى امتدادات الأسرة المقرانية في جيجل من لدن وصول العثمانيين إليها مع الأخوين بارباروس سنة 1513م، وتولّهم بعد ذلك مشيخة الرحمانية عند انتشارها في موطنهم القديم "صدّوق" بجاية، مما جعل انتفاضة محمد بن أحمد المقراني في مجانة وإعلان الحداد للجهاد معه ذو صدّ قويّ في أرجاء منطقة جيجل، خصوصاً بعد النكبة التي وقت لمشيخة أولاد عيدون بالوادي الكبير في فيفري بشهر فقط قبلها. ويمكن أن نعدّ استشهاد محمد المقراني نفسه يوم 5 ماي 1871م سبباً مباشراً أو القطرة التي أفاضت الكأس عند أتباع الرحمانية، لما كان له من مكانة سياسيّة واجتماعية في المنطقة، وهو ما جعل أتباعه ينتهزون الفرصة للتوسع غرباً جهة قبائل بني مناصر وشرقاً جهة قبائل جيجل، ومن أبرز هؤلاء سي العزيز بن محمد أمزيان الحدّاد المدعو (عزبوز) وهو ابن شيخ الطريقة الرحمانية ومقدّم منطقة بابور، هذا الأخير انضم إلى بومزراق المقراني في معارك بنواحي بجاية وشمال سطيف، ومنها وجّه عمله الثوري تلقاء الأعراس الجنوبية الكبرى لمنطقة جيجل مثل: بني زونداي وبني فوغال وبني عمران وبني خطاب وغيرهم، فأرسل إلى شيوخهم يدعّوهم إلى الانضمام للثورة، فاستجاب له على الخصوص مقدّمو الرحمانية بالمنطقة: القريشي بن سعدون مقدّم زاوية سرج الغول، عمر بوعرعور قائد تابابورت، صالح بن شاطر مقدّم زاوية تاكسنة، صالح بن بوشامة من بني عمران، وإبراهيم بوسولة من بني خطاب وأحمد بن علي من العوانة²³، وهؤلاء الأوائل هم الذين تولّوا تنظيم الثورة في جيجل ونقل شرارتها إلى الجهتين الغربيّة والشرقيّة منها، بحيث استجاب لدعوتهم كل مقدّمي الرحمانية تقريباً، وأصبحت الثورة واقعةً لا محالة.

²² - العسيلي (بسام): محمد المقراني وثورة 1871 الجزائرية، دار النفائس لبنان، ط3، 1990، ص 85.

²³ - خنوف (علي): تاريخ منطقة جيجل قديماً وحديثاً، منشورات الأنيس، الجزائر، ط2، 2011، ص 165.

3- عزيز بن محمد أمزيان الحداد ينقل شرارة الثورة إلى منطقة جيجل:

لكونه ابن شيخ الطريقة، وبحكم تولّيه مشيخة الرحماننة في عموشة وجبال بابور زمنًا طويلاً وبفضل الانتصارات التي حققها مع بومزراق المقراني قبل القبض عليه من الفرنسيين، تمكن عزيز بن الحداد أن ينال ثقة القبائل الجنوبية من جيجل وبجاية واستطاع في وقت قصير أن يجمع إليه جيشًا من 8000 مجاهد انطلق بهم إلى منطقة جيجل، وفي مسعى للقضاء على الموالين للفرنسيين بالمنطقة وتأمين ظهور المجاهدين في طريق نقلهم الثورة إلى جيجل المدينة، أرسل يوم 27 ماي 1871م إلى القايد عمر بن حبيلس وأخيه بلقاسم رسالة مكتوبة يدعوها فيها إلى مفارقة صف الفرنسيين ويحثهما على الجهاد، ويعدهما بالأمان إن تبعا المجاهدين في سبيل الله²⁴، فلم يردّا عليه وتجهّزا لمدافعته، فسار إليهما يوم 28 ماي بجيش من خمسة فرق، وأحرق برج بلقاسم بن حبيلس ودمّره مستغلًا غيابه عنه، ثم هاجمه رفقة أخويه محمّد وعمر والقوم الذين كانوا معهم بقرى بني فوغال في سلمي، فانهزم أنصار بن حبيلس وقُتل منهم 45 رجلًا منهم أخوه عمر وجرح 21 وأُسِر 24 آخرون، بينما استشهد من رجال ابن الحداد 68 وجرح 26 آخرون. وفرّ بلقاسم بن حبيلس إلى جيجل، فقطع طريقه شيوخ بني عمران صالح بن شاطر وصالح بوشامة وبلقاسم بن مبارك، لكنّه استطاع أن يتخطاهم بصعوبة ويعتصم بالفرنسيين داخل أسوار مدينة جيجل.

وبعد هذا الانتصار المبدئي، أرسل ابن الحداد إلى مقدّمي الرحماننة وشيوخ القبائل في فرجية والميلية والقلّ يدعوهم للانتفاض من جديد، ثم أخذ يتجوّل في قبائل المنطقة، يخطب عليهم بخطب حماسية يدعوهم فيها للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، ويستدلّ لهم برسائل أخيه محمّد عن هزائم الفرنسيين أمام قبائل الغرب الجزائري، ووسط طلاقات البارود المتحمّسة وزغردة النساء، ثم انتقل يوم 31 ماي إلى بني آجيس وأرسل إلى

²⁴ الرسالة طويلة أوردتها لويس رين مترجمة إلى الفرنسية، يُنظر: RINN (Louis): Histoire De L'Insurrection De 1871

En Algérie, Librairie Adolphe JOURDAN, ALGER, 1891, p 415.

القايد بلقاسم بن منيع رسائل شبيمة بتلك التي أرسلها لبن حبيلس فلم يُجبه، فهجم ابن الحدّاد على تاكسانة وأحرق بُرجها ومنزل أحمد بن منيع وكذا منازل أتباع الفرنسيين وغنم ما فيها، ثم أرسل رسالةً إلى الكولونيل بونفالي (Bonvalet) يطلب التفاوض معه ويخادعه ليتمكن منه، لكن هذا الأخير تفتّن له واشترط عليه الاستسلام، فمكث في تاكسانة إلى غاية يوم 02 جوان 1871م ثم غادر منطقة جيغل عائداً إلى عمّوشة، وتاركاً الأمر لخلفائه الثلاثة: القريشي بن سعدون وعمر بوعرعور والطيب بن مبارك بودفيس، فعزموا على التوجه لمهاجمة مدينة جيغل قصد تحريرها²⁵.

4- انطلاق الثورة بمنطقة جيغل: كرونولوجيا الأحداث

بعد مغادرة عزيز ابن الحدّاد إلى عمّوشة عبر فرجيوة وبابور، اجتمع حول بن سعدون وبوعرعور وبودفيس كلٌّ من الهاشي بن أمقران باش عدل منطقة سلمى، محمّد بن السّريج وولده مختار ومدني وأبناء السعيد بن القريشي سادة بني ورزّدين، إبراهيم بن بوصوفة من العوانة، أحمد بن علي بن شكّيرو من بني خزر، أولاد محمّد، أحمد بن بلقاسم بن رياض من بني مرمي، صالح بوشامة وصالح بن شاطر من بني عمران الجبالية، وانضم إليهم كذلك عمر بن أمقران مقدّم زاوية بني سقّوال، واستطاعوا أن يشكلوا جيشاً من نحو 3000 مجاهد، وفي يوم 07 جوان 1871م نزلوا ناحية السّاحل، وإتماماً لخطة ابن الحدّاد أحرّقوا برج القايد صالح بن سديرة ومطاحن مورال (Morel)، ثم تقدّموا على رأس رجال بني عمران وبني خطاب وبني أحمد وغيرهم، وهاجموا مخيّمات الجنود المتقدمة بكيلومترين عن المدينة، ولكن بعد ساعتين من القتال انسحب الجانبان دون خسائر.

²⁵- يبدو أن خطة عزيز بن الحداد لم تكن تقتضي البقاء في منطقة جيغل وقيادة الثورة فيها، لكون أخيه محمّد بحاجة إلى مساعدته، وإنما كانت نقل شرارة الثورة شرقاً لتقسيم الجبهة الفرنسيّة وإضعاف قوتها التي تتفرق على مناطق كثيرة، لذلك لم يطل المكوث، واختار تحرير مقدّمي الرحمانية والمشيخة المحليّة من سلطة الفياح المواليين للفرنسيين حتى يتمكنوا من التحرك مجدداً، لذلك انسحب تاركاً إكمال المهمة لخلفائه بن سعدون وبن عرعور وبودفيس، ينظر: Ibid. pp 417-419

وفي يوم 09 جوان، عاودوا مهاجمة المدينة من الجهة الغربيّة محاولين محاصرتها، ثم انقسم جيشهم على جبهتين: جهة الجنوب بفوج قاده القرّيشي بن سعدون حقق بعض الانتصار واقتحم الدفاعات الفرنسيّة، وتقدّم برجاله حتى وصل إلى تخوم القلعة القديمة عند حصن سان فرديناند (Saint Ferdinand)، بينما هجم بن شاطر ومن معه على المدينة من جهة وادي القنطرة ولم يستطع الفرنسيّون مواجهتهم برّاً، فلجؤوا إلى قصفهم من حصن سيدي اعمر (Duquesne) فاستشهد منهم 40 رجلاً وجرح آخرون، فتقهقروا واجتمعوا بفوج بن سعدون عند وادي القنطرة ووقعت معركة شديدة، لجأ فيها الفرنسيّون إلى الاستنجد بمدفعيّة سفينتين كانتا راسيتين قرب المكان هما (l'Armide) و (le Forfait)، وقاموا بقصف الثوار بغزارة مما تسبّب في استشهاده 125 منهم، وجرح الكثيرين ومنهم بن سعدون نفسه الذي أصيب برصاصة في الكتف²⁶. وفي يوم 11 جوان، قرّر عمر بوعرعور وعمر بن أمقران تغيير الاستراتيجية ومحاصرة المدينة، فقطعوا عنها قناة المياه الرئيسيّة الواقعة على بعد حوالي 3 كلم عن أسوارها، فخرج إليهم الفرنسيّون ووقع اشتباك شديد بالبنادق واستمر القتال إلى حلول الليل، ولكن الثوار انهزموا تحت ضغط المدفعية التي فتحتها عليها باستمرار المقدّم باهيك (Béhic)، وانسحبوا إلى جبل مزغيطن تاركين وراءهم 50 شهيداً، وما يقارب 80 جريحاً، بينما جرح من الفرنسيين جنديّان وضابط من قوات الرماة برتبة يوطنان lieutenant²⁷.

5- الثورة تنتشر شرقاً وغرباً، والحاجة إلى شخصيّة قائدة:

انتهت معركة حصار مدينة جيجل بانسحاب الثوار، بعد تيقّنهم من صعوبة المهمة وضرورة توسيع نطاق الثورة إلى شرق المنطقة وغربها، وتعدّد هذه المعركة عند أكثر المؤرخين الذين اشتغلوا على الموضوع الانطلاقة الفعلية لثورة الرّحمانيّة بجيجل على يد أبنائها، لأن مهمّة ابن الحدّاد كما يبدو كانت نقل شعلة الجهاد ونشرها في قبائل جيجل من خلال

²⁶. خنوف (علي): تاريخ منطقة جيجل قديماً وحديثاً، م س، ص 169.

²⁷. م ن، ص 170.

قيادتهم بنفسه لتدمير برجى القياد بن حبيلس وبن منيع، ثم تكليفهم بمهاجمة جيجل المدينة بينما يعود هو ليقف مع أخيه محمد بن الحداد في عموشة وهو ما حدث فعلاً.

ولكنّ عدم تكافؤ القوى ومثانة أسوار مدينة جيجل جعل مهمة اقتحامها شبه مستحيلة، مما حدا بالقريشي بن سعدون وعمر بن أمقران يوم 12 جوان 1871م إلى الانتقال شرقاً صوب زاوية "سيدي وارث" في بني حبيبي على ضفة الوادي الكبير، لدعوة شيخها مقدّم الرحمانية محمد بن فيّالة إلى الانضمام للثورة²⁸ وتوسيعها في المنطقة الشرقيّة، فأرسلوا إلى شيوخ القبائل والمقدّمين لكثّهم ترددوا في الردّ على بن فيّالة، خصوصاً بعد الآثار المدمّرة التي تركتها حملة الجنرال بوجي (Pouget) على مشيخة أولاد عيدون في شهر فيفري، مما أنبأهم بحساسية الوضع في منطقة الوادي الكبير الذي كان يحتاج إلى التريث وحُسن التخطيط، والحاجة الملحة إلى رجل من المشيخة السياسية التقليدية يحوز على ثقة الناس، خصوصاً وأن الفرنسيين جعلوا بمنطقة أولاد عواط (العنصر) كتيبةً من مواليم تحت إمرة القايد بلقاسم بن بوزيان وبعض الشيوخ العاملين مع الفرنسيين من أمثال القايد بلقاسم بويح من بني تليلان، الشاوش سعد بن نيني من أولاد عواط، الخوجة أحمد بن يوسف ومعهم فوج من الصباحيّة المجندين تحسُّباً لحذف ثورة الرحمانية إلى الجهة الشرقيّة.

غضب بن سعدون من تأخّر إجابة المقدمين، فأرسل مجموعة من "الرقاب" تدعوهم إلى الاجتماع يوم الخميس 15 جوان في سوق الشقفة، فاجتمع إليه ممثلو قبائل بني حبيبي، بني عمران، الجناح، بني معمر، بني صالح، بني بلعيد، بني مسلم... وغيرهم، فقام فهم يهوّن من أمر القياد الموالين للفرنسيين ويخبرهم عن انتصارات عزيز بن الحداد عليهم في سلمى وتاكسانة، وانتصارات بومزراق المقراني على جيش الاستعمار، ثم بإشارة من بن فيّالة ترك إعلان الجهاد لأحد المقدّمين المحليين من سكان المنطقة وهو محمد بن سعيّود من عرش الطهرية من قبيلة بني يدر، فتقدّم إلى وسط الجمع وهو يتلو آيات من القرآن

²⁸- RINN (Louis): Histoire De L'Insurrection De 1871 En Algérie, Op.cit. p 420.

الكريم ويفسرها بالوعد والوعيد، ثم أعلن الجهاد في سبيل الله معلناً أنه سيتم في يوم الغد 16 جوان مهاجمة القايد بلقاسم بوزيان والذين معه بمنطقة أولاد عواط. وصل الخبر سريعاً إلى قائد ملحقة الميلية القبطان ميليكس (Melix) فأرسل فوجاً من 500 جندي لدعم بلقاسم بوزيان استعداداً لردّ هجوم الثوار.²⁹

وفي ليلة 16 جوان أرسل بن سعدون وبن فيالة رسالة إلى بوزيان يدعونه للجهاد، ويطلبون منه فسخ الطريق بينهم وبين الفرنسيين في برج الميلية، هذا نصها:

(بسم الله الأحد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد

إلى المولى الشريف، والشيخ الفاضل الجليل، الطاهر الكامل... سي بلقاسم بن بوزيان يرّدك منّا إن شاء الله خير الخبر، نعلمكم أن قصدنا هو الاتجاه إلى الميلية وغزو هذه البلاد، ولكن تعترينا الرغبة قبل ذلك في أن نعلم هل أنت من أنصار حمة الإسلام، عسى أن لا تقفوا في طريق ذلك، فنحن نريد الجهاد في سبيل الله، وذلك صراط الاستقامة والفلاح، وفقنا الله إلى سلوكه.

فإن لم تلتحق بنا فقد ضللت الصواب، ولتستعدّ إذّاك للحراب. وإننا لا نؤمنك ولا نؤمن سلطان الفرنصيص الذي تواليه، لأن سلطان الفرنصيص ليس شيئاً أمام الله وأوليائه. والسلام عليكم.

من أهل القبائل من بابور إلى بني حبيبي، ومن الخليفة (عزيز): الشريف القرشي بن سعدون، وولي الله الحاج محمد بن فيالة أطل الله عمرهما.. آمين آمين آمين.. فعجل بالإجابة والسلام)³⁰

²⁹ - Ibid. p 422.

³⁰ - RINN (Louis): Histoire De L'Insurrection De 1871 En Algérie, Op.cit. p 423. (ترجمنا)

وما إن قرأ بلقاسم بوزيان هذه الرسالة حتى حمل مرسلو الرحمانيين جواباً شفاهياً مفاده أنه لن يبارح مكانه، وأنه مستعدّ لحربهم، مما جعل بن فيالة يرفض الهجوم على بوزيان خشية انكسار الثورة من بداياتها المترددة، فانسحب الثوار عنه دون قتال يوم 17 جوان ورجعوا إلى قبائلهم. ويورد لويس رين أن سبب احتراز أهل منطقة الوادي الكبير من القريشي بن سعدون هو رفضهم ونفورهم من قيادة كلّ غريب عنهم، وكذلك لأن بن سعدون ينتمي إلى الزاوية الرحمانية بفرجيوة، هذه التي كانت تابعة لمشيخة بوعكاز بن عاشور العدو التقليدي لقبائل الميلية لأنه حاربهم ووقف إلى جانب الباي غصمان أثناء إمارة ابن الأحرش الدرقاوي عام 1804م، هذه الحقيقة لم يكن بن فيالة قد أخفاها على بن سعدون، ولذلك انسحب رفقة عمر بن أمقران والتحقا بعزيز بن الحداد في جبال تاقيطونت.

كان للشيخ محمد بن فيالة احترام كبير وهيبة في قبائل المنطقة، ولكنه علم أنه سيحتاج إلى الدعم النفسي والمادي ليكسب شيوخ القبائل، فأرسل إلى صديقه الحسين بن أحمد مولى الشقفة، شيخ بني يدر الذي حكمت عليه السلطات الفرنسية بالإقامة الجبرية في مدينة ميلّة، فغافل قائدها يوم 20 جوان وتسلّل عائداً إلى جبال بني يدر الذين أشعلوا الأفراح بعودة شيخهم، وسمعت القبائل بعودة الرجل الذي كانوا يرونه أولى الناس بقيادة قبائل الوادي الكبير في هذا الوقت الحرج، وتزامن ذلك مع تسليم الشيخ محمد أمزيان الحدّاد إلى الجنرال سوسي (Saussier)، فاستلم الحسين مولى الشقفة مقاليد مشيخة الرحمانية، وسرعان ما التف حوله ثلاثة آلاف مجاهد ومئات البنادق والأسلحة البيضاء، وأرسل إلى جميع القبائل من جيجل إلى الميلية يدعوهم إلى اجتماع في زاويته لمناقشة موضوع الانتفاضة.

وفي يوم 25 جوان، اجتمع بزاوية الشقفة مقدّمو الرحمانية أو مرسلوهم من جميع قبائل المنطقة، واستطاعوا أن يجمعوا أكثر من 6000 رجل، وكان مولى الشقفة قد استلم من شيخ ميلّة محمّد بن عزّ الدين الذي نفي عام 1864م، بعض الأموال التي تم تهريبها

من قسنطينة قبيل دخول الغزو الاستعماري إليها، فاستعملها في شراء السلاح والمؤونة، ولمّا جهز الجيش تقرّر أن يُقسم إلى قسمين، أحدهما يسير بقيادة مولى الشقفة وبن فيّالة على طريق هضبة العروسة (بني فتح) باتجاه منطقة ميله وفرجيوة، محرّقًا ومدمّرًا في طريقه برج القايد خالفة بن عميرش، والثاني بقيادة عمر بوعرعور³¹ يقطع الوادي الكبير باتجاه برج الميليّة مهاجمًا في طريقه مخيم القايد بلقاسم بوزيان ومن معه بأولاد عواط.

وفي يوم 26 جوان، سار مولى الشقفة بجيشه في الطريق المُتفق عليه، وخرّب برج بن عميرش، ثم بعث إلى قايد أولاد عسكر عياش بن زايد يدعوه إلى الانضمام للثورة، فأجابه بالرّفص والوعيد، فزحف مولى الشقفة على أولاد عسكر وهزمهم، وهرب بن زايد إلى بني خطاب ولكنّ أنصاره قبضوا عليه وسلموه لمولى الشقفة الذي عفا عنه إكرامًا لهم.

وفي اليوم ذاته سار الفوج الآخر في طريقه إلى الميليّة، فأحرقت أعمدة التلغراف وبعض غابات الفلين، ثمّ اتفقوا على البدء بمهاجمة قياد قبائل الجناح وبني مسلم لئلاّ يتركوا خلفهم أحدًا من الأعداء، فسار يوم 01 جويلية شيخًا الجناح العربي بن بوزراع وبلقاسم بن مبروك إلى قبيلتهما، وأحرقا بيت القايد أحمد بن محمد بن العمري الذي فرّ إلى مدينة جيجل، ثم انتقلا رفقة أكثر من 1500 رجل إلى قبائل بني مسلم، وعاقبوا عرش الرحالة بمصادرة قطعانهم، جزاء تسليمهم الضرائب للفرنسيين، ثم تولى القيادة اعمر بن رفاص من بني مسلم، فأعاد إلى هؤلاء قطعانهم وانضمّوا إلى الثورة.

ثم أكمل الجيش مسيرته بقيادة بن فيالة حتى نزل عند قبائل بني فرقان وبني بلعيد، فالتحق به صالح بن صويلح شيخ بني فرقان وإبراهيم بن عمر شيخ بني بلعيد، وتقدّم الجيش فأزاح الكتيبة الفرنسية المرابطة بقيادة بلقاسم بوزيان قايد أولاد عواط الذي فرّ واحتوى ببرج الميليّة، وبعدها أحرق الثوار مزارع المعمر بوك (Bock) بالعنصر، وجميع الغابات التي حوله، فنجحوا في كسب دعم جميع قبائل الوادي الكبير.

³¹ - KITOUNI (Hosni): la Kabylie orientale dans l'histoire, Op.cit. p 199.

في هذا الوقت، كان مولى الشقفة وبن فيالة قد وصلوا وخيموا بمنطقة فج الخميس من عرش بني فتح، وفي يوم 03 جويلية اجتمع إليهم شيوخ قبائل المنطقة علي بن حميمود شيخ آراس، علي بن ناصر شيخ باينان، وآخرون مثل مهدي بن العربي وجودي بن بوشلاغم.. وأعدوا العدة للهجوم على مدينة ميله، ولكن الوقت لم يكن مناسباً لذلك، فساروا يوم 04 جويلية للهجوم على قافلة فرنسية متجهة من قسنطينة إلى سطيف، ووقعت معركة حامية قرب مخيم رجاص في الساعة 15:00 أصاب فيها الثوار عدوهم إصابة بليغة، لكن الكولونيل لويس (Louis) استعمل الأسلحة المتطورة والثقيلة، مما جعل الثوار ينسحبون إلى وادي النجاة³². انسحب مولى الشقفة وخيم يوم 05 جويلية في هضبة العروسة عند بني فتح، فلما سمع به فايد بني خطاب بلقاسم بن مراحي فرّ ومن معه واحتموا في برج الميلية، فاتخذ مولى الشقفة مكاناً له في زاوية ابن الزبوي الرحمانية في بني خطاب. وفي يوم 06 جويلية، نزلت جيوش الرحمانيين من العروسة إلى أرض أولاد علي، استعداداً لقطع الوادي الكبير والهجوم على برج الميلية، فاستعد قائد ملحقة البرج ميليكس (Melix) لمقاومتهم، وفي يوم 07 جويلية هجم الثوار على برج الميلية، ولكن سوء التنظيم وصعوبة تجاوز الوادي الكبير تسببت في هزيمتهم سريعاً وعودتهم إلى هضبة العروسة. وبعد هذه النتائج، قرر مولى الشقفة تغيير عملياته باتجاه ميله فسار إليها يوم 09 جويلية³³ وحاصر المدينة التي كانت تحت حماية طابور أوبري (Aubry) إلى حلول الليل، ثم في صباح اليوم الموالي 10 جويلية هاجمها بجيشه وتبادلوا إطلاق النار مع جنود العدو فقتلوا منهم اثنين وخرجوا اثنين آخرين، إلا أن أسوار المدينة الحصينة حالت دون سقوطها، فانسحب مولى الشقفة إلى وادي العثمانية وقام بمهاجمة بعض أتباع الفرنسيين هنالك، ثم عاد من جديد إلى زاوية ابن الزبوي ببني خطاب.

وفي هذه الفترة 13 جويلية اجتمع إلى زاوية محمد بن فيالة شيوخ جماعة وادي زهور وهم إبراهيم بن عمر شيخ بني بلعيد وصالح بن صويلح شيخ بني فرقان، واعمربن رفاس شيخ بني مسلم، فلما استكمل جمع جيوشه أرسل يوم 16 جويلية أحد مقدمي

³²- RINN (Louis): Histoire De L'Insurrection De 1871 En Algérie, Op.cit. p 428.

³³- Ibid. p430.

الرحمانية من أصول بجاوية وهو الحاج العربي بن الحاج محمد الصديق إلى جيجل لمهاجمتها، ولكن فوجه كان ضعيفاً فانهمز في أول جولة مع المراكز المتقدمة للفرنسيين، أما بن فيّالة فقد سار يوم 17 جويلية إلى وادي زهور، وقام يوم 18 من الشهر بتخريب الكثير من منشآت المستعمر، منها السكة الحديدية الرابطة بين جيجل وسكيكدة، وإتلاف مزارع المعمرين، ثم انضم إليه عرش المشاشطة فسار بجيشه، وخيم يوم 19 بقرية تالفدور شمال الميلية، وفي اليوم الموالي 20 جويلية هجم بن فيّالة بجيشه على بيوت الصباحية بقرية العجاليّة، وتقدّم إلى برج الميلية ولكن المدفعية الثقيلة والرصاص الكثيف حالاً دون وصوله إليه، فانسحب وعاد الكرة في اليوم الموالي 21 جويلية ولكنه انسحب أيضاً وللسبب ذاته، فغير وجهته شرقاً إلى قبائل العشاش وبني قايد وبني تليان.³⁴

في يوم 26 جويلية، سمع القادة الفرنسيون في جيجل بوجود بلقاسم بن أحمد الشريف مولى الشقفة (أخ الحسين مولى الشقفة) فأرسلوا فوجاً من الجنود مدعّم بفرق القومية وباغتوا قرى بني حسان وحران فأحرقوها وقتلوا المدنيين عقاباً لهم على موالاة مولى الشقفة وعادوا إلى قلعة جيجل، فلحقهم ثوار أولاد علي وأولاد مارس وأولاد بلعفو وبني عمران وبني خطاب الغرابية وبني أحمد وبني سيار، بقيادة صالح بن شاطر وصالح بن بوشامة والطيب بن بودفيس، وحدثت معركة دامية بين الطرفين على أسوار جيجل استطاع فيها الثوار قتل الكولونيل هورثو (Heurteux) وأحد الجنود، ثم انسحبوا بعدما انتقموا لبني حسان وحران.

وفي اليوم نفسه 26 جويلية ثارت قبائل أولاد عطية قرب القل (الجازية والزابرة)، وأحرقوا الغابات جميعها لمحاصرة مؤسسة استغلال الثروة الخشبية، فهاجمهم النقيب بون (Pont) مع خمسين جندياً من الزاوة³⁵، وفي أيام من 26 إلى 01 أوت اشتبكت عدة مرات مع الفرنسيين وحاولوا حصار برج بونوغة، ثم في 02 أوت سار في نجدتهم رجال من

³⁴- فايد (مولود): المقراني، تر. سهيلة بربارة، منشورات ميموني، ط1، 2013، ص 165.

³⁵- RINN (Louis): Histoire De L'Insurrection De 1871 En Algérie, Op.cit, p 541.

قبائل بني فرقان وبني بلعيد وبني مسلم وأولاد عواط والمشاشطة وهاجوا برج بونوغة بقيادة ثائر شجاع يستي بوبشرة، لكن الهجوم فشل واستشهد من الثوار 07 رجال منهم بوبشرة نفسه الذي تحداه القايد صالح بن سعد بن جامع في قتال فردي وقتله، بينما جرح 12 آخرون، فانسحب المهاجمون ولكن المواجهات بقيت متواصلة بشكل يومي تقريباً بين الثوار وقوات القبطان فيفندسانغ (Vivensang) إلى غاية 09 أوت، عندما انسحب المقاومون والتحقوا بمحمد بن فيالة.

في الناحية الأخرى، يوم 26 جويلية، قاد بن فيالة جيوشه إلى جبال بني موية ونزل ناحية بني هارون أين التقى بالحسين مولى الشقفة ومن معه من القبائل، وعزماً على مهاجمة مخازن الموالين للاستعمار بالمكان، لكن النقيب فيلو (Villot) وجّه طابور أوبري (Aubry) إلى هناك، وحدثت معركة كبيرة يوم 27 جويلية عند وادي شرشاري، وسقط القتلى من الجانبين، ثم في يوم 29 جويلية تصادما مجددا في سوق الاثنين (نواره دي بني موية)، فانسحب طابور أوبري وعسكر في سيدي مروان، بينما اضطر الثور إلى الانسحاب نحو الضفة اليسرى للوادي الكبير عند بني خطّاب وزواغة أين ظلّ الحسين مولى الشقفة، بينما عاد بن فيالة إلى زاويته ببني حبيبي طالباً الدعم والمعونة. وفي هذا الوقت قام الثور بإضرم النار في الغابات الممتدة من المليية إلى وادي زهور.

6- مقدّمو الرحمانية في مواجهة آلة الإبادة: الجنرال دولاكروا يتولى إخماد الثورة

نتيجة للأحداث الخطيرة المتسارعة التي قادها مقدّمو الرحمانية بمنطقة جيجل، خرج الجنرال دولاكروا (Delacroix) يوم 02 أوت من قسنطينة إلى ميّة لمراقبة الوضع، والتحق به طابور أوبري من سيدي مروان، فسار صوب وادي النجاة بحثاً عن مولى الشقفة وخيّم في عين النخلة، ثم بعث إليه يعرض عليه شروط الاستسلام، فاكتمف مولى الشقفة بفسج باينان، فخرج دولاكروا إليه يوم 09 أوت، والتحم الجيشان في منطقة بهلول³⁶ فحفي

³⁶- Ibid. p 543.

الوطيس، وتتابع الخسائر الجسيمة بين الطرفين حتى المساء حين انسحب الثوار إلى جبال بني خطاب. وفي يوم 11 أوت أرسل الجنرال دولاكروا رجاله فأحرقوا جميع قرى أولاد رابح (فرع من بني خطاب)، ويوم 12 أحرقوا قرى آراس وما إليها، وخرّبوا الديار وقتلوا الكبار والصغار، فنزل كبارهم يوم 13 أوت إلى مخيم باينان وطلبوا منه الأمان. وفي اليوم الموالي سار الجنرال دولاكروا إلى جبال سيدي معروف، وهي جبال حجريّة مكشوفة، واشتبك مع الثوار اشتباكاً عنيفاً لقي فيه خسائر كثيرة، ولكنّه أصاب من الثوار مصاباً جلاً، نتيجة لقوة سلاحه وعدد جنده وعدّته. وفي يوم 17 أوت خيّم الجنرال بجيشه في هضبة العروسة، فجاءه كبار قبائل بني خطاب وبني عيشة وأولاد علي وبني حبيبي يطلبون السّلم خوفاً على النّساء والصّغار، ثم يوم 19 أوت عبّر قرية المحارقة نازلاً إلى الوادي الكبير، أين لقي كبار قبائل أولاد عواط وتايلمام والجناح فوجدهم يطلبون الأمان للغرض ذاته.

وبعد استسلام هذه القبائل بقوة السلاح، ويوم 21 أوت 1871م، وجد مولى الشقفة ورفيقه بن فيالة نفسيهما وحيدين في المعركة، فأقدما على الاستسلام المشروط بأن لا تعاقب قبائل المنطقة، ولكنّ الجنرال دولاكروا ما إن ألقى القبض عليهما حتى سار بهما إلى الميليّة، وأنزلهما يوم 22 أوت بسجنهما، ثمّ بعث في قبائل المنطقة يطلب المغارم المجحفة والإتاوات المكلفة، فبلغ ما أخذه منهم جزاء ثورتهم أكثر من 112000 فرنكاً، وأكثر من 840 بندقية، كما رهن عنده 146 رهينة ضمان، ثمّ أمر بإحراق زاويتي الشقفة وسيدي وارث وإغلاق جميع الزوايا الرحمانية، وانتقل إلى جبال سلمى والعوانة بحثاً عن عمر بوعرعور والقريشي بن سعدون فالتحقا بجبال بابور واختفيا هناك.

وبعدما أنهى دولاكروا حملته الدموية وأثنى في المنطقة قتلاً وحرقاً ومصادرة، ألقى القبض على عدد كبير من الثوار وتمت محاكمتهم ومصادرة أملاكهم، ونشر ذلك في أعداد كثيرة من الجريدة الرسمية الفرنسية وبعض جرائد المبشر لسنة 1872م، بينما حكم على حسين مولى الشقفة ومحمد بن فيالة بالإعدام تعزيراً لهما، وادّعى الفرنسيون بعد ذلك أنهما قتلاً ثم أعلن الأمر بين الناس فشكّل هذا الادعاء الرواية الرسميّة لزمن طويل جداً، لكن بعد

الاستقلال ونتيجة لأبحاث أرشيفية عميقة قام بها المهتمون بالتاريخ، ولخصها حسني قيطوني³⁷، تأكد أن بن قباله سجن بالميلية ومولى الشقفة بقسنطينة، ثم نقلاً إلى حصن كليرن (Fort Queuern) في برست (Brest) ومكثا هنالك في انتظار نفيهما إلى كاليدونيا الجديدة، ولكنهما توفيا في السجن بعد إضراب عن الأكل، ودفنا في قبر واحد مع آخرين قريباً من الحصن ذاته الذي سجنا فيه، وبالضبط في جزيرة الموتى (Ile des morts) قرب برست³⁸.

خاتمة

لقد كانت نتائج هذه الثورة وخيمة جداً على سكان منطقة جيجل، بحيث صدرت أحكام مغالطة ومتابعة في حقهم بالقتل والنفي والمصادرة لـ 13 ثم 18 ثم 289 شخصاً في سنة 1872م لوحدها، كما فقدت المنطقة جزءاً كبيراً من ديمغرافيتها وتناقصت أعداد قبائلها بشكل رهيب ظهرت في الهوة الواسعة بين إحصاء القانون المشيخي (Sénatus consulte) سنة 1863م-1867م وبين إحصائيات قانون التلقيب في 1882م، وذلك نتيجة لحملات التقتيل والنفي الممنهج إلى داخل الوطن مثل: ميله وقسنطينة وقالمة ووهران، وإلى خارجه مثل: كايان وكاليدونيا الجديدة.

لقد بقيت هذه الثورة العظيمة طي النسيان لزمان طويل، وتقاسمتها أنشطة الإحياء المحلية بمسميات كثيرة تقسمتها بين مدن منطقة جيجل مثل: ثورة بن قباله / ثورة بن سعدون / ثورة مولى الشقفة / ثورة عزيز بن الحداد... غيرها، والحقيقة أنها امتداد عظيم لثورة محمد المقراني والشيخ محمد أمزيان الحداد في مجانة وصدوق، قاده مقدّمو زوايا الطريقة الرحمانية بجيجل، ويجدر التفكير بجديّة في تسجيلها رسمياً والاحتفاء بها بوصفها ثورة شعبية وطنية مكتملة الأركان، ويمكننا أن نجتمع في الجدول الآتي المعارك التي خاضها هؤلاء ما بين 28 ماي 1871م و22 أوت 1871م:

37- KITOUNI (Hosni): la Kabylie orientale dans l'histoire, Op.cit.

38- Ibid.

ثورة مكّمي الرحمانية (من 28 ماي إلى 22 أوت 1871م)			
27-28 ماي 1871م	هجوم برج بلقاسم بن حبيلس	قرية سلى	عزيز بن محمد آمزيان الحداد
31 ماي 1871م	هجوم برج بلقاسم بن منيع	تاكسانة	عزيز بن محمد بن آمزيان الحداد
07 جوان 1871م	هجوم برج صالح بن سديرة	الثلاثاء	القرشي بن سعدون - صالح بن شاطر
09 جوان 1871م	معركة واد القنطرة	مدينة جيجل	القرشي بن سعدون - صالح بن شاطر
11 جوان 1871م	معركة قناة المياه	مدينة جيجل	عمر بوعرعور - عمر بن أمقران
26 جوان 1871م	هجوم برج خالفة بن عميرش	الشقفة	الحسين مولى الشقفة
01 جويلية 1871م	هجوم بيت أحمد بن العمري	الجناح	العربي بن بوزراع - بلقاسم بن مبروك
04 جويلية 1871م	معركة وادي النجاة	رجاص	الحسين مولى الشقفة
07 جويلية 1871م	معركة برج الميلية	الميلية	الحسين مولى الشقفة
10 جويلية 1871م	معركة ميله	مدينة ميله	الحسين مولى الشقفة
20-21 جويلية 1871م	معركة العجالقية	الميلية	محمد بن فيالة
26 جويلية 1871م	معركة الأسوار	مدينة جيجل	صالح بن شاطر - صالح بوشامة - الطيب بن بودفيس
	هجوم برج بونوغة	أولاد عطية	بوفرة
27 جويلية 1871م	معركة بني موية	بني هارون	محمد بن فيالة - الحسين مولى الشقفة
29 جويلية 1871م	معركة سوق الاثنين	بني موية	محمد بن فيالة - الحسين مولى الشقفة
09 أوت 1871م	معركة بهلول	ترعي باينان	الحسين مولى الشقفة

المصادر والمراجع العربية والمترجمة:

- باي (حاج أحمد)، مذكرات أحمد باي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.
- بوعزيز (يحيى): موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، دار الهدى عين مليلة، الجزائر.
- خنوف (علي): تاريخ منطقة جيجل قديما وحديثا، منشورات الأندلس، الجزائر، ط2، 2011.
- شغيب (محمد المهدي): أم الحواضر في الماضي والحاضر، تحقيق: سفيان عبد اللطيف، دار نوميديا قسنطينة، 2015.
- فيرو (شارل): تاريخ جيجلي، تر. عبد الحميد سرحان، دار الخلدونية، الجزائر، 2010.
- العسيلي (بسام): محمد المقراني وثورة 1871 الجزائرية، دار النفائس لبنان، ط3، 1990.
- عميراوي (أحمد): محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، ط2، 2004.
- العنترى (محمد الصالح): فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانهم، مراجعة يحيى بوعزيز، الجزائر.
- فايد (مولود): المقراني، تر. سهيلة بريارة، منشورات ميموني، ط1، 2013.
- قداش (محفوظ): جزائر الجزائريين، تر. محمد المعراجي، ANEP، الجزائر، 2008.
- مسبيرو (فرانسوا): سانت أرنو أو الشرف الضائع، تر. مسعود حاج مسعود، مراجعة أحمد بكلي، دار القصبة - الجزائر، 2007.

المصادر والمراجع الأجنبية:

- BACHELOT (Bernard):** Louis XIV en Algérie: Gigeri-1664, L'Harmattan, 2003.
- BATTACHE (Ali):** Aperçu historique sur la kabylie - La vie de cheikh El Haddad et l'insurrection de 1871, 2^{ème} édition, Edition al-amel, 2010.
- KITOUNI (Hosni):** la Kabylie orientale dans l'histoire - pays des Kutama et guerre coloniale, Edition Casbah, Alger, 2013.
- Le commandant Du CHEYRON:** Bordj-Bou-Arredidj pendant l'insurrection de 1871 en Algérie - Journal d'un officier, Paris 1873.
- MERCIER (Ernest):** Histoire de Constantine, J. MARLE et F. BIRON, 1903.
- RINN (Louis):** Histoire De L'Insurrection De 1871 En Algérie, Librairie Adolphe JOURDAN, ALGER, 1891.
- ROZET et CARETTE -HOEFER F:** Algérie, états tripolitain, didot frères, Paris, 1850.